ثنائية الفقر والتفوق

لا تشعر بالوحدة والكون كلّه بداخلك

جلال الدين الرومي

ولدتُ أواخر عام ١٩٥٥، ونشأتُ في حقبة سياسية مرتبكة ومتقلبة عَجَّتْ فيها الانقلابات العسكرية والتغييرات السياسية والحزبية التي أثرت على حياة الفرد والأسرة العراقية، والمجتمع العراقي بأكمله بشكلٍ كبير، وترعرعت في كنف عائلة كبيرة فقيرة مكونة من اثني عشر فردًا، كان والدي الطيب هو المُعيل الوحيد لهذه العائلة الكبيرة الكثيرة المتطلبات.

رغم مهارة أبي الحرفية العالية في عملهِ؛ إلا أنه لم يكن في قدرته منح عائلته حالة الرفاهية التي يتمناها الجميع، أو حتى الحال المتوسط، وإنما استطاع تأمين الحد الأدنى من مستوى العيش، أبي كان يعمل في مجال صياغة الحُلي الذهبية إلا أن عمله هذا لم يُمكنه من امتلاك الموارد المالية الكافية لتأمين متطلبات هذا العدد الكبير من الأفواه الجائعة، لذا كان عليه أن يسعى جاهدًا، يبذل جهدًا استثنائيًا، يُعاني الكثير ويفعل المُستحيل كي يؤمن لقمة العيش للجميع، أبي فاضل وكما اسمه رجل دمث الأخلاق مهيب الطلعة وسيم الوجه بقامة فارهة، نحيل العود بسحنة حنطية ذو أنف دقيق وشعر أسود عندي إنه رجل عظيم.

بينما كانت أمي مدبرة منزل كلاسيكية من الطراز الأول، لا تزال تدهشني قدرتها الفائقة على تنظيم عملية إطعام جيش من الأطفال الجياع، لقد عملت أمي المستحيل كي تُدير حياة الأسرة الكبيرة رغم أنها كانت محاطة بخيارات محدودة جدًا ولهذا حصلت على مرتبة عظيمة في الأمومة والحضانة والتربية المستقيمة لأبنائها، أمي امرأة مدهشة من ذلك العصر الجميل، أم نادرة بمعنى

الكلمة، أغدق عليها الله بجمال يوقظ الروح خارق يكاد يُضاهي نور القمر وضياء الشمس إذا ما اجتمعا سويًا، قصيرة القامة ممتلئة القوام ذات وجه دائري ببشرة ناعمة كثلج القطب الشمالي ناصع البياض، في حضرة أمي يبدو العالم نقيًا كما خلقه الله، لا زيف فيه ولا خطيئة، خلاصة القول إنها إنسانة وامرأة وأم ومربية رائعة.

استحق والدي بجدارة فائقة لقب المناضل، كونه استطاع بقدرة عظيمة الموازنة بين كيفية الحصول على المال؛ والاحتفاظ في نفس الوقت بكرامته وكبرياءه اللتان لم يكن يساوم عليهما أبدًا، والتي ورثتها منه، رغم كل هذا إلا أن حياتي وحياة العائلة كانت صعبة للغاية، ولقد عانينا الكثير من شظف العيش والفاقة والحرمان، ولكننا لم نشعر يومًا أننا افتقدنا إلى دفء وعطف أبي، ومحبة وحنان أمي، وهذا ما كان يُغطي أجسادنا النحيفة الباردة ويمنحنا قدرة المواصلة والبقاء.

كانا والديَّ إنسانين أميين بسيطين، لم يسعفهما الحظ أن يتلقيا أي تعليم، إلا أنهما امتلكا من حرص الملائكة ما يفوق التصور على إدخال جميع أشقائي وشقيقاتي المدرسة، وإكمالهم التعليم وحصول بعضهم على شهادات علمية مرموقة.

في مرحلة دراستي الابتدائية والمتوسطة وحتى الإعدادية كنت غالبًا ما أذهب مع والدي إلى مكان عمله في خان الشاه بندر الشهير، مركز صناعة وتجارة الذهب في بغداد والعراق، والذي يغفو على ضفاف نهر دجلة الخالد، حيث يحرسه جسر الشهداء العتيد بشموخ، والذي يسرح بنظره بإعجاب عظيم عبر ضجيج المارة والعمال نحو التمثال الشامخ للشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي، أساعده في تنفيذ بعض الأعمال البسيطة في مجال الصياغة، غالبًا ما كنت أجلب طعام الغذاء له من بيتنا الذي كان يبعد حوالي نصف ساعة أو يزيد، وبالتأكيد مشيًا على الأقدام.

بعد أن كان أبي في بداية حياته يعمل كعامل ميكانيكي لتصليح مضخات الماء؛ تحول إلى مهنة صياغة الذهب، وأصبح في فترة قياسية من بين أمهر صاغة العراق فيما يُعرف بصياغة (الحِجِل و المَلوي)، وشاهدتُ بأُمِّ عيني حجم حرصه البالغ ومعاناته اللامحدودة في سبيل الحصول على ما يكفي ليسد رمق عائلة كفريق كرة قدم، مكونة من اثني عشر فرد.

لم يبقَ مكان يَعتُبُ عليه أبي إلا واستأجر فيه دكان صغير كورشة ليعمل فيه، بدءًا من المنطقة التي تقع بين محلات مستلزمات صناعة الأحذية وبين موقع مكائن سحب وتطويع الذهب، إلى خان (أمين زاهد)، مرورًا بخان (الياهو دنكور) والسوق الذي بُني حديثًا وكان مدخله يطل على شارع المتنبي وصولاً إلى خان (الآلوسي)، وأخرها في نهاية خان (الشاه بندر) العتيق القريب جدًا من سوق السراي الشهير ببيع الكتب والمجلات والقرطاسية، وباختصار شديد إن أبي تنقل في جميع أرجاء منطقة الشابندر التي قضى عمره وفيًا لها، ولم يهجرها مثلما فعل الكثير من الصاغة، وانتقلوا إلى شارع النهر الأكثر تطورًا.

بقي أبي طيلة حياته مُعتمدًا على ما تُبدع يداه الماهرتان اللتان تُنتجان أندر وأصعب أنواع الحُلي الذهبية الشعبية، مثل الحِجِلْ والمَلوي، ولم يكن يمتلك الإمكانيات المادية لكي يطوِّر حاله كما فعل الآخرون، ولا بد من العروج على شرح بعض مصطلحات الصياغة كي يطلع القارئ الكريم على تفاصيلها:

الحجل هو أسطوانة ذهبية لمَّاعة مصقولة جيدًا، مجوفة مطوية دائريًا بعناية فائقة ذات نهايات برؤس على شكل مكعبات مثمنة، مزخرفة بأشكال جميلة ذات تفاصيل دقيقة، وتحتوي على أقفال بديعة تُصنع بطريقة ذكية، وتعتبر الحجول من أشهر الحلي الذهبية الشعبية التي كان يقدمها أهالي العرسان الأثرياء إلى عرائس أبنائهم كمهر للزواج، كذلك اعتمدتها النساء العراقيات في تخزين المال تحسبًا من عاديات الزمن، إضافة إلى أنهنَّ يستخدمنها للزينة، وكما يقول المثل العراقي الشائع (الذهب زينة وخزينة)، وتزين الحجول أسفل سيقان النساء. أما المَلْوي فهو عبارة عن قطعة ذهبية حلقية الشكل مُميزة براقة تتكون من

اسطوانتين ذهبيتين صلدتين، تتشابك وتلتف وتحتضن أحدهما بدقة وبراعة مع الأخرى لتشكل ضفيرة تنتهي بأقفال جميلة ومزركشة، تستخدمها النساء للزينة في ساعد الأيدي أو أسفل السيقان، وتعتبر كِلا الحجول والملاوي في التقليد الشعبي العراقي كعلامات للترف والرفاهية والغنى.

كنت وما زلت شاهدًا حَيًّا على كفاح أبي، حيث إنه كان وفير الحظ إذ رزقه الله بعشرة أبناء؛ خمسة أولاد وخمس بنات جميعهم كاملين أصحاء كزهور قادمة من عالم الأنوار [1]، لكنه في نفس الوقت تحمل أعباء العمل المرهقة وكثير من شقاء الحياة كي يطعمهم.

كان يحصل على قوته من نتاج يديه اليومي، إذ كان يتقاضى ديناران مقابل صناعة كل زوج من الحِجول، وحين لا يسعفه الحظ في الحصول على هذا القوت فكان لابد له من توفير دينار واحد بأي طريقة ممكنة كي يسد رمق أطفاله، كنت أرى أبي يجول محلات تجار الصاغة ذهابًا وإيابًا كي يحصل على هذا الدينار الثمين اللعين الذي يكفي آنذاك لسد متطلبات عائلتنا، وحين يعجز يعود إلى محله مكسور الخاطر مهموم، تفضحه عيناه القلقتان، إلا أنه كان يتحلى بالأمل، إنه الشيء الوحيد الذي يدحر القلق، حين ييأس تمامًا كان غالبًا ما كان يرسلني إلى بعض تجار الصاغة أمثال العم الفاضل نعمان عوفي والعم الفاضل المرحوم (عودة جياد) لاقتراض مبلغ من المال يسدِّده لاحقًا من أجور العمل... كانوا يحترمون أبي كثيرًا لمهارته الفائقة، دقته في عمله، اعتداده بنفسه، ويسعيان دائمًا إلى إدامة روح الصداقة معه والتعاون في العمل، غالبًا ما أحسست تعب وشقاء أبي البالغ الذي تعكسه عيناه وقلقه الشديد حين تعسر الدنيا معه، كنت أعاني معه وأشعر بثقل الدنيا عليه رغم صغري، فهمت سعادة الدنيا حين يبتسم أبي ويطلق ضحكة بريئة دون قلق.

:- عالم الأنوار: هو عالم الخلق الأول للأثريين والملائكة ومستقر الأنفس الطيبة، عالم كله، نور وصلاح، ويُقابل (الجنة).

حين تبتسم الدنيا لأبي يبدو كطفل سعيد يتشح بالبراءة بعيدًا عن كل الأحزان، يغلق محله المتواضع مساء كل يوم، يذهب مباشرة إلى كازينو الكندي المُطِّل على تقاطع شارع الجمهورية مع شارع الأمين، يقضي سويعات استراخاء جميلة بعيدًا عن صخب حياة العمل مع أصدقائه وزملاء عمله، يضحكون ملئ أفئدتهم، يصرخون أحيانًا حين تشتد لعبة الدمينو الشعبية، التي أحيانًا من كان يخسر الرهان فيها؛ يدفع أسعار الشاي التي شربها الجميع أو يربح فيدفع الآخرون عنه، بعدها يذهب إلى محل بيع الخمور الذي يقع في منتصف شارع الأمين كي يبتاع ربع قنينة من العرق العراقي نوع مستكي، أو نصف قنينة وأحيانًا قنينة كاملة وهذا يعتمد على ثُقل جيبه، يشتري بين يوم وآخر بعض الفاكهة والخضار ويتجه مباشرة إلى البيت مُحملاً بالأكياس حيث تستقبله أمي الطيبة بابتسامة حنونة دافئة، بعد أن يأخذ أبي حمامًا ساخنًا يجلس على بساط وفير يفترش الأرض في إحدى غرف البيت المُخصصة له، ويبدأ طقسه اليومي المقدس المعتاد بتناول كأس من العرق الممزوج بالماء البارد مع الثلج بعد أن يتناول كِسرة صغيرة من الخبز وحبة طماطم مع قطعة من الخيار الطازج.

لم يكن أبي من النوع المتعصب أو المُغالي في الدين، بل كان كريمًا متسامحًا مؤمنًا بدينه الصابئي المندائي بالفطرة، إلا أنه كان يحرص كثيرًا على آداء الطقوس المندائية، مثل التعميد المندائي[1] الذي يجرى في الماء الجاري على ضفاف نهر دجلة الخالد بشكل منتظم، أو الالتزام الكامل بأيام الاعتكاف (الكرصة)[2] قبيل أيام العيد الكبير لطائفتنا الصابئية المندائية وغيرها.

:- التعميد: الصباغة، وهي الرسم المندائي بالماء الحي.

א- الكرصة: أيام الاعتكاف، وهي ٣٦ ساعة تبدأ مع غروب شمس أخر يوم من أيام السنة، وتستمر حتى صباح اليوم الثاني من السنة المندائية الجديدة، وفيها استذكار لعمليات الخلق الأولى، يعتكف خلالها الصابئة المندائيون في أماكنهم لا يغادروها، وبعدها مباشرة يكون العيد الكبير.

اهتم أبي كثيرًا بزرع مبادئ الدين المندائي والأخلاق الحميدة فينا، وبذل أفضل جهده لإسعادنا، كما منحنا أهم شيء في الحياة؛ وهو حرية التعبير عن آرائنا وحرية اختيار شريك الحياة وتحديد مصيرنا... رغم أن أبي كان هادئ الطبع إلا أنني لم أرث عنه صفته هذه، إذ على ما يبدو أنني ورثت عن أخوالي صفات الضحك من الأعماق والقهقهة الصاخبة، والتكلم بصوتٍ عالٍ، وصولاً إلى استخدام الأيدي بشكلٍ فعال في المُلامسة، وحتى ضرب من يجاورني على أكتافه أحيانًا، لقد كان أبي أفضل أب في الدنيا، رحمه الحي العظيم وأسكن روحه الطاهرة أفسح جناته.

لا تغيب عن بالي الذكريات أبدًا، حين كان يصطحبني أبي أنا وشقيقيَّ الذين يصغراني بعدة سنين لغرض الاغتسال، حاملاً معه أنواع الفاكهة اللذيذة إلى حمام السباع العام، والذي يقع في الشارع البيني الذي يوصل شارع الكفاح بشارع الشيخ عمر، مارًّا قرب تماثيل السباع العظيمة وحدائقها الغناء، نغتسل بسعادة فريدة، نتقافز بين أحواض الماء الساخن، نجلس على الدكة الساخنة التي تُماثل حمام الساونة الغربي، وبعد أن نُكمل اغتسالنا نجلس على آرائك مريحة طويلة مفروشة من السجاد البلدي الملون والمزركش، ونحتسي شاي القرفة (الدارسين)، أو شاي الحامض، الذي كنتُ أحبه كثيرًا وأكل البرتقال والليمون الحامض بعد الاستحمام، قد تكون هذه اللحظات المُميزة من أسعد لحظات حياتي التي قضيتها مع أبي، والتي ما زالت أحفظها في ناقوس ذاكرتي.

أكملتُ دراستي الإعدادية صيف عام ١٩٧٣ اللاهب بسخونته وأحداثه السياسية العاصفة بتفوق، وحصلت على مُعدل عالٍ نسبيًا وهو ٨٥،٥ % في الفرع العلمي، تخرجت من إعدادية الرسالة للبنين التي تقع مقابل جامع الحيدرخانة التاريخي نهاية شارع الرشيد العتيد تجاه باب المُعظم، حيث يجاورها محل شَربت الحاج زبالة الشهير لدى البغداديين، والذي يبيع عصير العنب المُجفف المُميز.

لم أكن يومًا طالبًا مُجتهدًا أو متفوقًا طيلة فترة دراستي الابتدائية والمتوسطة، وحتى السنتين الأولى والثانية من الإعدادية، حيث كنت غالبًا ما أحصل على نتائج مُتدنية في الفصل الدراسي الأول، وهكذا يمتد الحال مع امتحانات منتصف العام، ولكني دومًا ما كنت أحزم أمري وأنهض مُنتفضًا ساعيًا لتحسين نتائجي في الفصل الثاني، وأضمن كعادتي النجاح النهائي إلى الصف التالي دون أي فشل أو إعادة.

ولقناعتي الراسخة أن مستقبلي المهني والاجتماعي يعتمد بشكل كامل وحسب نظام التعليم المُعتمَد في العراق على نتائج الصف المُنتهي، التي تؤهل الطالب للالتحاق بِكُلية مرموقة في الجامعات العراقية، وهذا بالنتيجة يُحدد ويرسم مصير وحياة الإنسان لاحقًا، ما أن نجحت من الصف الخامس الإعدادي صيف عام ١٩٧٢ حتى بدأت التحضير والتهيئة فورًا للعام القادم الحاسم بشكل استثنائي وكنت أرافق أصدقاء طيبين ذوي مستوى دراسي جيد، وهم نهاد سعد علي وناجح.

مَرضتُ مَرضًا شديدًا قبيل بداية امتحانات البكالوريا الحاسمة بسبب الإجهاد الكبير والضغط الزائد الذي أحدثته على نفسي، أنهك المرض قوتي وسحق جميع قدراتي على مواصلة الدراسة والتهيئة للامتحانات، رقدت طريح الفراش ردحًا من الزمن، حتى توفر لديَّ مبلغ مالي لشراء تذكرة مُعاينة الطبيب في المركز الصحي الواقع في محلة الفضل وسط بغداد، جرجرت أقدامي رُغمًا عني وقصدت المركز الصحي، أخبرني الطبيب أن صحتي ليست على ما يرام وأنَّ وعكتي شديدة، وأنَّ خطرًا حقيقيًا يُداهم حياتي، نصحني أن أعير الاهتمام كي أنقذ حياتي وليس للنجاح في الامتحانات، لم أحفل بما أخبرني به الطبيب، إذ أن حياتي ومستقبلي كانا على المحك، ويعتمدا فعليًا على ما يتمخض عن هذه الأيام، وبالتحديد على نتائج الامتحانات القريبة.

قررت بثبات المؤمنين الحصول على نتائج جيدة في امتحانات البكالوريا, تفرغت كليًا للمذاكرة ولم أعُد اذهب إلى محل والدي بشكلٍ دائم، احترم أبي قراري بشكل مطلق ولم يُعارض، إذ أنه كان دائمًا يحترم قرارات أبنائه جميعًا دون تمييز في دراستهم وزيجاتهم وتسيير أمور حياتهم الأخرى.

ولصعوبة الوضع المالي لي ولعائلتي كما أسلفت لم أكن أملك ما يوفر ركوب الحافلة يومًا، لذا كنت طيلة سنوات دراستي الاثنتي عشرة؛ أقصد مدرستي مشيًا على الأقدام، كما لم أحظَ يومًا كباقي زملائي بإمكانية شراء شطيرة شهية واحدة من حانوت المدرسة، أو حتى امتلاك الملابس الخاصة بحصة الرياضة، الأمر الذي جعلني أكره وأتهرب من حضور درس الرياضة.

نعم هكذا كان الحال وأسوأ في بعض الأحوال الأخرى، إذ أنه نادرًا ما كان يتسنى لي الحصول على حذاء أو ملبس جديد، كنت غالبًا ما أحصل على ملابس أخي الذي يكبرني بخمس سنوات، وأرتديها باستمرار حتى أحصل منه على أخرى حين تصغر عليه.

لا تغيب عن بالي حادثة لا أزال أراها في منامي أحيانًا، وذلك حين أهداني أخي حبيب كِنزة صوفية دافئة رائعة رصاصية اللون بعد أن صَغُرت عليه، حينها شعرت بقلبي يخفق نشوة، في قرارة نفسي شعرت بسعادة بالغة، حتى كنت أسير بها لأيام عديدة ليل نهار وأنا زاهي مُختال، حتى تركتها أحد الأيام للحظات على مقعد دراستي في المدرسة، مرت دقائق وحين عُدت لم أجدها، قلقًا صرت أجول ببصري في أرجاء الصف فلم أجدها، سألت بعض زملاء صفي التي كانت عيون بعضهم تبرق خُبثًا ولم يخبرني أحد بمصير كنزتي، حتى وجدتها بنفسي قذرة رطبة ترقد على أرضية حمام المدرسة الذي يتبول فيه جميع طلاب المدرسة وتزكم رائحته الأنوف.

لقد كانت مفاجأة قاسية في انتظاري، وقفت مندهش شاخص العينين معقود اللسان، كانت لحظات قاسية ومُخيبة للآمال، أحسست بتعاسة وغضب لا يمكن

وصفهما، شعرت برغبة عارمة بالبكاء، كان الموقف كفيلاً أن يجعل عيوني تتوسع وتدمع وثغري يكشف عن علامة صدمة واضحة، لم أعرف كيف أتصرف مع كنزي الذي سُرقَ مني غدرًا، وكنزتي التي أعدِمت في ظل جلجلة ضحكات الآخرين على الموقف سوى أن أطلق ساقاي للريح مُتجهًا إلى البيت، والجلوس في أحضان أمي باكيًا شاكيًا قدري، كابوس مزعج ما زال يراودني.

لم تترك عائلتي الكبيرة موقعًا سكنيًا في أرجاء شارع الكفاح في بغداد إلا وشغلته بالإيجار الشهري، شغلت عائلتنا وعائلتا شقيقي أبي في بداية الأمر بيت كبير ذو طابقين، احتوى على العديد من الغرف، شغلنا الطابق الأول منه مع عوائل أعمامي، ومنحنا غرف الطابق العلوي لأقارب ومعارف مندائيين لنا مقابل بدل إيجار.

يقع هذا البيت العتيد في منطقة سوق حنون الشعبية خلف شارع الكفاح في قلب بغداد حيث شهدتُ أنا فيه الكثير من الأحداث السياسية، بعد سنوات انتقلنا إلى منطقة الشورجة وسكنا في شقة سكنية ضمن عمارة حديثة الإنشاء آنذاك – تُشرف على حي التوارة الذي هجره اليهود أو بعد أن تمَّ تهجيرهم – سكنت معظم شققها عوائل مندائية إضافة إلى عوائل أخرى، في هذه البيت شهدت أول مغازلة رومانسية غير مكتملة مع فتاة كردية فائقة الجمال، كانت قد تزوجت من شاب عربي، ومرورًا بِعدة دور سكناها في منطقة القسم التي تشرف على ساحة (زبيدة)، وصولاً إلى ساحة السباع الشهيرة ببركتها المائية الرائعة التي تتوسطها تماثيل الأسود ذات اللون الأبيض، وعلى ظهورها ترفع حوضًا دائريًا كبيرًا يبدو وكأنه خزانٌ من الماء، نافوراتها، أضواء قناديلها الجميلة، حدائقها الغناء المُزينة بجميع أنواع الزهور والأشجار وأرضيتها التي يفترشها الثيل الأخضر.

حدائق السباع الشهيرة، جنة زرعها الله في قلب ذلك الحي الشعبي الفقير العائم على ضجيج الحياة، هي مكان يخلب اللب بجماله وألوانه، وتتكون من حديقتين

كبيرتين طويلتين على شكل أقواس متقاربة، بحنان تحتضنان وسطهما حديقة دائرية رائعة التي تحتوي على بركة ماء كبيرة دائرية ترفعها عن الأرض وتحرسها أسود بيضاء، ولاحقًا وللأسف الشديد تحولت هذه الحدائق الغنَّاء بسبب الإهمال إلى مرآب للسيارات، ولا أعرف ما الذي حصل لها الآن، وبالتأكيد أصبح حالها أسوأ بكثير، ويقال إنها قد أصبحت مَكبًا للنفايات.

انحشرت عائلتنا الكبيرة المؤلفة من اثني عشر فردًا بشقة سكنية شغلناها في عمارة كبيرة في منطقة السباع، التي كانت نهارًا تعج بضوضاء وصخب كبيرين جراء أعمال الحدادة واللحام وقطع الأخشاب وتجارة مستلزماتهما، أما ليلاً فكانت المنطقة تتمتع بجو رائق وهادئ، إذ أنها تقع بقرب هذه الحدائق التي قضيت فيها أجمل وأتعس أيام مراهقتي.

أجلسُ تحت ظلال الأشجار الكبيرة الوارفة في أوقات النهار حين ترتفع درجة حرارة الجو أكثر من خمسين درجة مئوية، أحتمي بظلالها من أشعة الشمس الحارقة وأنا أحتضن كُتبي وكراساتي بكل قوة وعزيمة؛ لاجتياز الامتحانات النهائية بنجاح وتفوق، وحين يأخذ مني التعب والإرهاق مأخذهما؛ أفترش الأرض دون فراش وألتحف السماء، أستلقي وأغُط في قيلولة قصيرة لا ألبث أن استيقظ سريعًا لنداءات معدتي الخاوية.

كنت مع أصدقائي أقضي معظم أوقاتي في حديقة السباع؛ التي هي المتنفس الرائع الوحيد لأهالي المنطقة، خصوصًا بعد انتهاء ضجيج كفاح العمال النهاري، أحيانًا أكون مأخوذًا بالضجيج الذي تعودت عليه طويلاً، إذ هو يُحيط بكل شيء في حياتنا، وأحيانًا أخرى ألوذ بالصمت وأنزوي مع كتبي.

أيام امتحانات البكالوريا كنت وأصدقائي ندرس ليلاً على قناديل حدائق السباع حتى وقت متأخر جدًا، نتنشق هوائها الممزوج بعبق زهورها وأشجارها في جو هادئ نقي خالي من ضجيج العمل ودربكة الحياة النهارية، كنا نستغل هذا المكان السحري كي نحظى بوقت مناسب للدراسة والمذاكرة، بصحبة العديد من

الطلاب الذين لا يبخلوا بتقديم العون والمساعدة في توضيح وتفسير ما يصعب على البعض.

لا يُخفى على أي شخص مِنا أنها كانت أيام جميلة رغم مرورها عصيبة وحاسمة، كانت جلساتنا لا تخلو من الأحاديث حول الصبايا والفاتنات في حيِّنا، أو اللواتي يمرن من قربنا كحوريات الجنة، يلتحفن بعبائاتهن أو يتزينَّ بملابسهن القصيرة، مبرزات مفاتنهن في إغراء فاضح ومقصود.

حدائق السباع العظيمة وما يحيطها كانت مسرحًا لأحداث سياسية كثيرة عنيفة ومهمة في تاريخ العراق، إذ شهدت العديد من المظاهرات المُعارضة للسلطة، وأحداث عنف كقصف خزان ماء السباع بالمدفعية، وإحداثها فتحة كبيرة فيه إثر تَحصُن بعض أفراد الحرس القومي سيء السُمعة أعلى قمته، مِما استدعى المُنتفضين خلال انقلاب الثامن عشر من تشرين ١٩٦٣ إلى إطلاق النار عليه، مما تسبب في سقوط واستسلام عناصر الحرس القومي.

الشمس أكملت مهمتها في منح الدفء الكوني لذلك النهار، حتى ودعت كبد السماء وانزوت بعيدًا تحت الأفق الأحمر البعيد، فبزغ مساءً تداعبه نسائم باردة نسبيًا، تمنح المرء إحساسًا بالرضى والهدوء، اليوم الذي يسبق امتحانات البكالوريا وغدًا سيكون امتحان أول مادة وهي اللغة العربية التي لم أحبها إطلاقًا، كنت أرقد ببطنٍ خاوية على فراش وضعته والدتي الحنون مباشرة على الأرض، أمي التي قلبها لا يعرف سوى مشاعر الحب وسخاؤها، لا يعرف للعطاء حَدًّا، كانت شجرة مِعطاءة وارفة الظِلال، أمي ميزان الحب والحنان السماوي تجلس إلى جانبي بهدوء الأنبياء، تضع يدها الدافئة على جبهتي وكأنها تصب في من طاقتها وإكسير حياتها، تُدخل أصابعها الناعمة بين خصلات شعري الأسود الرطبة فأشعر بلذة خارقة، تبتسم رغم ذبول نضارتها وبريق عينيها يتراقص حزنًا علي، تُمسد شعري بلطف بالغ، ثم ما تلبث أن تتساقط من عينيها كرات صغيرة من دموع متلألئة صافية كصفاء الماء الحي القادم توًا من

عالم الأنوار، دمعات أمي كالماء الحي العائدة أسرع من الملائكة إلى السماء، تارة تَهمس في أذنيَّ بلحن حنين أغاني الأمومة التي تدغدغ شغاف قلبي، وتارة أخرى تدعو لي ببراءة الأطفال بالتعافي السريع والحصول على نتائج باهرة تؤهلني أن أصبح مهندسًا طيارًا.

رفعت أمي رأسها إلى الأعلى شاخصة وجهها ويديها إلى السماء بخشوع كبير وتَلت صلاواتها، ثم تمتمت في سرها وقالت بصوتٍ مسموع: (يا هيي[١]... يا ماري[٢]... يا مندا ادهيي[٣] احفظ ولدي الحبيب وعافه وامنحه الصحة والقوة على مواصلة وتأدية امتحاناته؛ كي يحصل على نتائج متفوقة ويصبح مهندسًا طيارًا).

تحيرني حتى الآن نظرة أمي الخارقة للمستقبل، إذ كانت هذه المرأة مُصممة على أن أكون مهندس طيار، لم أفهم حينها كيف خطر على بال والدتي هذه الأمنية ولكني راسخ الثقة واليقين أن دعاء والدتي النابع من قلبها الصادق قد ارتفع داويًا إلى السماء فاستجاب له الله فورًا، منحتني أمي الصبر والقوة والعزم والمواصلة كي أحقق هدفي، ولم تنقطع أبدًا عن دعواتها وصلواتها لي بالتوفيق والنجاح, قطعت وعدًا على نفسي وقسمًا ثقيلاً على تحقيق أمنية أمي في أن أصبح مثلما تتمنى.

ذات المساء زارني صديقي المندائي نهاد الذي يقطن حاليًا في العاصمة السويدية ستوكهولم كي يطمئن علي، ويتأكد من قدرتي وقراري في الذهاب إلى الامتحان في اليوم اللاحق، لم أكن آنذاك بالوضع الذي يسمح لي باتخاذ مثل هكذا قرار مهم وحاسم, إلا أن نهاد أبلغني أنه في جميع الأحوال سيعرج عليَّ

:- هيي: الحي وهو الاسم الذي يُطلق على الله في المندائية.

א- ماري: وتعني الرب، ذلك أن الحي هو رب جميع الأكوان والمخلوقات وسيدها.

ב- مندا ادهيي: وتهني العليم أو العارف بالحي، صفة للحي إذ أنه العليم بكل شيء، وتأتي بمعنى الملاك القدير الذي له الحسم في دحر عوالم الظلام وسيادة النور.

صباحًا في طريقه إلى مكان الامتحان، تركني نهاد بعد أن تمنى لي الشفاء ومضى، نمتُ ليلتها وأنا أشعر بخواء تام حيث اكتويت بنار المرض والقلق من مُستقبلي المجهول.

نهضتُ بتثاقل والهزال ظاهر عليّ بوضوح، لم أقوَ على رفع أقدامي التي تسمرت كجذور شجرة عتيدة امتدت لسنين طوال في أعماق الأرض، صباح جديد مُشرق بضياء رائع ولكن ساخن جدًا، مُتحصنًا بدعاءات أمي اتكأت على كتف صديقي الوفي نهاد ناهي الصالحي، الذي أصرَّ على مساعدتي واصطحابي إلى المدرسة، لم يتوفر في بيتنا فطور صباحي، انتعلت صندل بالي وذهبت مع صديقي كأضحية العيد سيرًا على الأقدام إلى قدري، حيث مركز الامتحانات في مدرسة تقع في منطقة النهضة التي تحتضن مرأب الحافلات العامة.

اتخذت مكاني المُخصص قرب النافذة، لفحتني أشعة الشمس الصيفية اللاهبة بعنف دون رحمة، ارتفعت حرارتي بسرعة، أحسستُ بالغثيان، لقد آذاني لهيب الشمس، سالت مني أنهار من العَرق وشعرت بجوع شديد ينهش معدتي الخاوية، تماسكت أخذت نفسًا عميقًا كي أغسل أدران مرضي وأزيل آثار قلقي، قرأت أول سؤال وإذا به نفس الموضوع الذي كان قد أخبرني به أصدقائي سابقًا ولم أعِرهُ أي اهتمام، بسبب كثرة مجاميع الأسئلة المسروقة المُفترضة للامتحانات التي تمَّ إرسالها إلى الطلبة ذلك العام.

تَدهورت حالتي الصحية أكثر مما هي عليه، تحطمت تحضيراتي بشكل لافت وانهارت حالتي النفسية, شعرت بالإحباط الكامل، وضعت قلمي على دفتر الامتحانات وسرحتُ بين همومي في الماضي البعيد، يبدو أن الحرارة ضربت رأسي وأحدثت فعلها فيه فسحبتني عبر الزمان إلى الماضي، إلى أحداث أول مغازلة رومانسية حدثت في حياتي وما أزال مراهق ساذج، حينها كنت أقف أمام شباك رواق شقتنا المُطل على شارع ضيق جدًا في إحدى أزقة حي

الشورجة وسط بغداد التي تعج بالمحال التجارية والحياة الصاخبة، أصوات مُفعمة بالحياة كأصوات عُمال الحمالة وعربات نقل الفاكهة والمواد الغذائية المتنوعة التي كانت تستورد من الخارج، طلاب المدارس يسيرون على شكل مجموعات صغيرة يصرخون أحياناً ويتقافزون أحياناً أخرى، رائحة الطعام من مطابخ الشقق والبيوت الأخرى تخترق أنفي فتحدث تأثيرها المباشر في معدتي، على سطوح البيوت القديمة التي تقع أسفل بنايتنا العالية تتكدس أنواع الأجهزة والمواد المستهلكة المهملة التي غطاها التراب وتظهر من الأعلى كأنها خارطة جوية لموقع عسكري متروك.

ضجيج الناس وأبواق السيارات على أوجه، عوادم سيارات الحمل تطلق دخاناً أسود تلوث البيئة رغم صفاء حالة الجو العام، أقف أشاهد مسرحية الحياة بتفاصيلها الدقيقة، حينها كانت جدتي والدة أمي قد قدمت من إيران لزيارتنا لأول مرة، كانت جدتي تجلس في البيت مع أمي التي لم تلقها لسنين طويلة يتداولان أحاديث الفراق والشوق والحنين والماضي المعتادة في مثل هذا اللقاءات الحميمة، لذا اتخذتُ قراري لأدعهما يتحدثان بسلام وراحة أكثر، خرجتُ من باب شقتنا نحو شباك الرواق الذي يبعد عدة أمتار، توقفت عنده أنظر إلى ما يجري أسفل العمارة كأني أشاهد عرض فيلم حَي.

فاجأتني يد دافئة تجلس برقة بالغة على ظهري، لم أعلم يد منْ هذه، إلا أني ارتحت لها قليلاً، ما أن أدرت نظري نحو صاحب هذه اليد الحانية حتى رأيت جبلاً من جمال وإثارة وشهوة، هذه اليد تعود لأجمل شابة في حَينا المسحوق، حينها سَرَتْ في جسدي الهزيل رعشة قوية لذيذة وأخذتني إلى جو وردي آخر.

– ما الذي تفعله هنا؟

قالتها بدلع وغنج الأميرات وما زالت يدها تتربعُ على ظهري تمنحني طاقة هائلة ودفء وحنان عظيمين

– أراقب حركة الكون...

أجبتها بسذاجة وتلكؤ بعد أن سقطت سهام عينيَّ على وجهها الدائري المضيء كالقمر في وحشة الليل الحالك، ونزلت نحو الوادي الذي يفصل بين نهديها الكبيرين، فوزية شابة قصيرة الطول نسبيًا، تتمتع برشاقة الغزال وخفة الفهد في مشيتها المثيرة، ولقد زرع الله فيها جمال الكون كله وأبدع في صنعه، ذات شعر فحمي طويل، هذا الشعر الذي أبكى الرجال ولم يبقَ أي ذكر في حَينا إلا وانحنى أمامه وتمنى أن تكون صاحبته خليلة له، أو حتى أن يحظى بلحظة واحدة كي تمنحه سعادة أبدية وحياة بلا نهاية.

سلسلة ذهبية رفيعة متلألئة تحمل صندوق صغير على شكل قرآن صغير تتدلى بين نهديها العارمان الثائران حيث تبرز حلماتهما كبراعم طرية من خلال ثوبها الساتان الشَّفيف الناعم ذو اللون الأخضر الفاتح، تُحرك يدها الرقيقة نحو أعلى ظهري فتزداد درجة حرارة جسمي دون سيطرة مني، أصابعها الترفة أستشعِرُ بها تتحرك بحرية تجلدني بنشوة ثائرة لم أشعر بها أبدًا بحيث بت لا أرى ما يجري أسفل عمارتنا، ولا أسمع أي صوت للحياة، إذ أن جميع أحاسيسي غير المفهومة أصبحت أسيرة تحت سلطة يدها الطرية، ثوبها المكشوف عند صدرها الأبيض البض يجلس على جسدها المثير ليبرز جميع مفاتنه وانحناءاته الغائرة...

– ما بالك تقف جامدًا لا تتحرك؟

تسألني بغنج أكبر وسط دهشتي وشبقي غير المفهوم الذي لم أخبرهُ سابقًا، تأخذ يدي لتضعها على خصرها الممتلئ لتغوص في بحور سعادته، لا أقاومها بل أسرح معها في محاولاتها العذبة، أتحسس ثوبها بهدوء حتى أشعر بتلامس أصابعي مع جلدها اللدن الناعم دون أي عوائق، تزداد حرارتي أكثر تتجمع فصوص العرق على جبهتي بغزارة وليس في مقدوري من شدة الإثارة أن أزيلها، الموقف يربكني بالكامل ولساني ينعقد عن الحركة والنطق، الخوف يأخذ مني مأخذًا كبيرًا، أتلفتُ يمينًا وشمالاً ولا أجد أحدًا.

تستمر في مداعبة ظهري وأنا منغمس معها دون تصعيد، كلماتها تخرج من فمها الشهي دافئة عطرة عبقة بشهوتها الكبوتة كأنها تستغيثُ بي عطفًا، شفاهها الشهية ترتجف رغمًا عنها، وأنا كالصخرة الصوان جامد لا أتحرك، تقترب مني أكثر أتحسس فحيحها، أشعر بلوعتها ودفئها حتى كادت أن تحتضني، لفت ذراعها الثانية حول خصري وصارت على مرمى من الشبق، بيدها الأخرى ترفع يدي التي تجلس على جسدها إلى الأعلى، أشعر وكأنها تتحرك على جبل من زبد بلدي طازج، تصل أصابعي إلى جذر نهدها الطري، ما أن اصطدمت إبهامي بأسفل نهدها الذي برزت حلمته وانتصبت بشكل جنوني؛ حتى أحسستُ بلذة فائقة لم أكن أدرك مغزاها حينئذ، كانت نبضات قلبها التي أحسست بها من خلال يدها السحرية تزداد وتناجي بالغيث، كأنها بكل جوارحها تدعو وتستجدي الحنان، حتى أنها أطلقت تنهيدة ساخنة مكتومة بدت وكأنها ترغب بالانطلاق إلى عالم آخر.

رغم نشوتي البريئة العارمة إلا أنَّ ذراعي أخذت تؤلمني فتترك جسدها وتنزل إلى الأسفل دون وعي، وفجأة بدأ كل شيء في النزول، ضاقت عيناها قطبت حاجبيها وانتفضت كأن عقرب سام لدغها وأخرجها من شهوتها وعالمها الرومانسي، لم يعجبها فعلي لذا أشاحت بنظرها عني، لملمت بقاياها تركتني وهمت ذاهبة، وهي في طريقها رمقتني بعينيها الواسعتين الجميليتين وأطلقت نحوي نظرة يجتمع فيها شعور الحقد والعتاب وحتى الكراهية لم أفهمها آنذاك، تركتني ومضت إلى شقتها، كنت أرى مؤخرتها المكورة تتماوج بتناغم فريد مع سير حركتها الأنثوية المثيرة رغم انكسارها.

صوت خشن للمدرس المراقب يرتفع يقتحم عليّ هيامي ويعكر صفوي بعنف:
– هل انتهيتم؟ أسرعوا... الوقت يوشك على الانتهاء.

يعيدني إلى واقعي الأليم، الزمن الثقيل يمر مملاً، كتبت من طرف أنفي ما قدرت وخرجت متخاذلاً مهموم ومُنكسرًا، ولكن في نفس الوقت كان يختلجني

شعور لذيذ، فكرت جديًا في تأجيل الامتحانات جميعها ومعاودة المحاولة مُجددًا في الدور الثاني، ولكن يبدو أن دعوات أمي لم تذهب هباءً؛ إذ تحسنت حالتي الصحية بشكل لافت، وبدا وكأن الله قد تقبل صلوات أمي ومنحني طاقة مضاعفة وقدرة صمود كبيرة، وهكذا أكملت امتحاناتي بمعنويات أفضل.

ما أن انتهت الامتحانات حتى بدأت مرحلة القلق والتحسب والترقب لنتائجها، كنت مُطمئنًا للنتائج فيما عدا مادة اللغة العربية، إذ كانت إجابتي فيها غير مقبولة إلى حد ما، أو على الأقل بالنسبة لي.

مع صديقي سعد طه ذهبت إلى المدرسة لاستلام نتائج الامتحانات، كان سعد طالبًا حريصًا متفوقًا ذكيًا جدًا على الرغم من أنه كان يعمل نهارًا كحدَّاد بالتوازي مع دراسته، وكنت غالبًا ما أعول عليه في مساعدتي في الكثير من المواضيع التي تصعب عليَ ولكن...

وقف الطلاب وسط هياج وضجيج كبيرين ينتظرون بشوق ولهفة غير صبورة نتائج الامتحانات ومصيرهم اللاحق، ما أن بدأ مدير المدرسة بتلاوة النتائج حتى أصبح الجو ساكنًا كهدوء المقابر، تسمع صوت الإبرة إذا سقطت وسطهم، وبعد حين جاء اسمي وقرأ المدير مجموع علاماتي، أغمضتُ عينيَّ وأنا أتمتم صلواتي وشكري لله، مرت لحظة صمت قصيرة استطعت بعدها تركيب أجزاء جسدي في قطعة واحدة والوصول إلى إدراك يؤكد حقيقة أنني فعلاً حصلت على نتيجة ممتازة ومعدل عال، وهذا يعني تفوقي وانتصاري الكبير على نفسي وعلى جميع تحديات الجوع والمرض والحرمان.

دون وعي لم أتمالك نفسي حتى أطلقت لساقيَّ العنان وأخذتُ أذرعُ ساحة المدرسة الكبيرة ذهابًا وإيابًا عدة مرات، حتى صرفتُ الكثير من طاقتي الهائلة، هدأت سريرتي قليلاً وأصبحت قناعتي راسخة لنجاحي بتفوق واضح ثُمَّ عدت إلى جانب صديقي سعد، بقينا ننتظر لحين أعلن المدير اسم سعد وعلاماته، وهنا كانت المفاجئة الكبرى، لم نعتقد يومًا أن نتيجة سعد ستكون بهذا الشكل، إذ

أنه حصل على نتيجة مقبولة وليست فائقة، وهذا ما ساءه كثيرًا وأحزنني بشدة، أما نهاد فحصل على نتيجة جيدة وكان فرحًا بها.

رغم صدمتي بصديقي العزيز سعد إلا أن نشوة النصر والنجاح غمراني بقوة كبيرة وأنسياني حزنه، كان أول ما خطر لي أن أتوجه راكضًا إلى مكان عمل أبي المناضل كي أضع في يديه الكريمتين نتيجتي، التي هي حصاد نضاله وشقاءه، وأزفُ له بشرى نجاحي الباهر، بيده اليمنى التي تُغطيها حبات الذهب المتلألئة رفع نظارته القديمة ووضعها على قمة رأسه، بوقار الرسل نهض والدي من خلف منضدة عمله العتيقة مع عيون تبرق فرح وكبرياء، وجنتيه المتعبتين تطغي عليهما سعادة فياضة، شفاهه تصرخ بسمة خارقة عميقة، تمتم في سره كأنه يتلو دعاء الشكر لله، احتضنني بقوة، طبع قبلة حانية على جبهتي الرطبة وتمنى لي التوفيق والنجاح الدائم.

لقد سكب أبي في قيم الرجولة والكرامة والكبرياء، أما أمي فلقد صبت في نفسي كل حنان الأرض وبساطتها، لذا كان من أولى أولوياتي في الحياة هو الوفاء والبرُّ لهما.

على فوري طِرتُ مُسرعًا إلى البيت لأبشر أمي الحبيبة، نبع المحبة والعطاء ورمز التفاني الإنساني العظيم، لكي أضع نتاج صلواتها الصادقة ودعائاتها المُستجابة وثمرة جهدي بين يديها الحنونتين، وأدخِلُ البهجة إلى نفسها الطاهرة النقية، وأثبت لها أن صلواتها لم تذهب سدى، ضمتني أمي إلى صدرها الدافئ بالحب الملائكي الصادق، دون مقدمات وعلى فورها قالت لي بعفوية الأطفال وبراءة ملائكة الله:

– هذه خلاصة دعواتي لك يا بني، إنّ الله سبحانه القدير قد استجاب لي كي تصبح مهندس طيار.

أفرحتُ أمي وأبي رحمهما الله وكانا يستحقان هذه البشارة بجدارة، سُرَّ أشقائي وشقيقاتي وجميع أقاربي بهذا النجاح والتفوق الذي كان نتيجة دموع وسهر،

جهد ومرض، معاناة وجوع، تعب وإصرار؛ قفزت من مرحلة مؤلمة في حياتي وابتدأت مرحلة جديدة لا أعرفُ أسرارها بعد أن حصلت على معدل يؤهلني القبول في الكلية والتخصص الذي أرغب به دونما عناء، أو هكذا اعتقدت.....

obeikan.com